

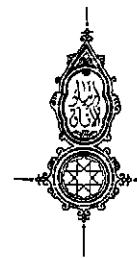
This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقرارات الجامعة.

ويمنع منعاً باتاً نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الإلكتروني إلى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.



رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة (٩٢١) / أدب رحلات
أحمد بن فضلان / مولف ، [حررها وقدم لها : شاكر لعبي]

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصالح ، بناية عبد بن سالم ،
ص.ب. ١١٥٤٦ ، العنوان البريدي : مركب الـ ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس : ٦٣١٢٨٦٦ ،
هاتفاكس : ٧٥٢٣٠٨ / ٧٥١٤٣٨

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : ٤٤٨٠ ،
الإمارات العربية المتحدة ،
هاتف : ٩١٥٧ ، فاكس : ٥٦٨٥٥٠١ ،
E-mail : mckayyali@ionet.com

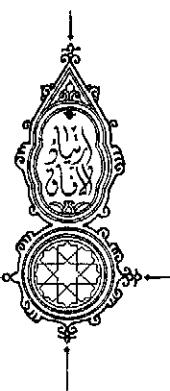
الطبع في الأردن :
دار القارس للنشر والتوزيع
عمان ، ص.ب. ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١ :
الخطوط وتصميم الغلاف :
مطر الشمراني / مصر
الصف الضوئي :
القرية الأكاديمية / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنية / عمان
التنفيذ الطباعي :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

رحلة ابن فضلان

إله بلاد الترك والروس والصقالبة

٩٢١

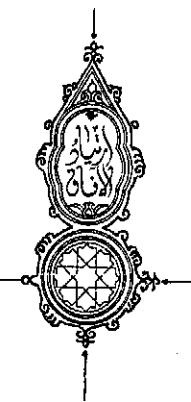
حررها وقدمها : شاكر لعبي



All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح باعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نظام استعادة المعلومات أو
تنقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي من الناشرين .

ISBN: 9953-441-36-7



... «فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاموا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل ملبن الباب فوضعت رجليها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن ، وتكلمت بكلام لها فأنزلوها ، ثم أصعدوها ثانية ، ففعلت ك فعلها في المرة الأولى ، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ، ففعلت فعلها في المرتين ، ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ورمي به وأخذوا الدجاجة فألقواها في السفينة . فسألت الترجمان عن فعلها فقال : قالت في أول مرة أصعدوها : هو ذا أرى أبي وأمي وقالت في الثانية : هو ذا أرى جميع قرابتى الموتى قموداً . وقالت في المرة الثالثة : هو ذا أرى مولاي قاعداً في الجنة والجنة حسنة خضراء ومعه الرجال والغلمان وهو يدعونى فاذهبا بي إليه . فمروا بها نحو السفينة فنزلت سوارين كانا عليها ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها وتنزع خلخالين كانوا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت . ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحاً بيذا فغنت عليه وشربته ، فقال لي الترجمان : إنها تودع صواحباتها بذلك ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته وطولت الغناء والسجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التي فيها مولاها فرأيتها وقد تبلدت وأرادت دخول القبة فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها . وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لثلا يسمع صوت صياحها فيجزع غيرها من الجنواري ولا يطلبن أنوث مع مواليهن ثم دخل إلى القبة ستة رجال فجامعوا بأسرهم الجارية ثم أضجعوها إلى جانب مولاها وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلًا مخالفًا ودفعته إلى اثنين ليجذباه وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل فأقبلت تدخله بين أصلاعها موضعًا موضعًا وتحرجه والرجلان يختناقانها بالحبل حتى ماتت .»

من نص الرحلة ص 108



تَهْدِيْفُ هَذِهِ السَّلْسَلَةُ بَعْثَ وَاحِدٍ مِنْ أَعْرَقِ أَلْوَانِ الْكِتَابَةِ فِي ثَقَافَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ ، مِنْ خَلَالِ تَقْدِيمِ كَلاسِيْكِيَّاتِ أَدِيبِ الرُّحْلَةِ ، إِلَى جَانِبِ الْكِشْفِ عَنِ نَصوصٍ مَجْهُولَةٍ لِكِتَابٍ وَرَحْلَةٍ عَرَبٍ وَمُسْلِمَيْنَ جَابُوا الْعَالَمَ وَدَوَّنُوا يَوْمِيَّاتِهِمْ وَانْطَبَاعَاتِهِمْ ، وَنَقْلُوا صُورًا لِمَا شَاهَدُوهُ وَخَبَرُوهُ فِي أَقْالِيمِهِ ، قَرِيبَةً وَبَعِيْدَةً ، لَاسِيمًا فِي الْقَرْنَيْنِ الْمَاضِيَّيْنِ الَّذِيْنَ شَهَدَا وَلَادَةَ الْإِهْتِمَامِ بِالْتَّجَرْبَةِ الْغَرَبِيَّةِ لَدِيِّ الْأَنْتَخَبِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُشَفَّفَةِ ، وَمِحَاوَلَةِ التَّعْرِفِ عَلَى الْجَمَعَيْنِ وَالنَّاسِ فِي الْغَرَبِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ عَزْلُ هَذَا الْإِهْتِمَامِ الْعَرَبِيِّ بِالْآخِرِ عَنْ ظَاهِرَةِ الْاِسْتِشَارَقِ وَالْمُسْتَشَرِقِيِّيْنِ الَّذِيْنَ مَلَؤُوا دُرُّوْبَ الشَّرْقِ ، وَرَسَّمُوا لَهُ صُورًا سَيِّمًا مَجَدِلَاتٍ لَا تُحَصِّي عَدَدًا ، خَصْصُوا فِي الْلُّغَاتِ الإِنْكَلِيزِيَّةِ وَالْفَرَنْسِيَّةِ وَالْأَمْلَانِيَّةِ وَالْإِيطَالِيَّةِ ، وَذَلِكَ مِنْ مَوْقِعِهِمُ الْقَوِيِّ عَلَى خَارِطَةِ الْعَالَمِ وَالْعِلْمِ ، وَمِنْ مَنْطَلَقِ الْمُسْتَأْثِرِ بِالْأَشْيَاءِ ، وَالْمُتَهَيِّئِ لِتَرْوِيَجِ صُورَ عنْ «شَرْقِ أَلْفِ لِيَلَةٍ وَلِيَلَةٍ» تَغْذِيَ أَذْهَانَ الْغَرَبِيِّينَ وَمَخْيَالَتِهِمْ ، وَتُمْهِدُ الرَّأْيَ الْعَامَ ، تَالِيًّا ، لِلْغَزوِ الْفَكِريِّ وَالْعَسْكَريِّ لِهَذَا الشَّرْقِ . وَلَعِلَ حَمْلَةِ نَابِلِيُّونَ عَلَى مَصْرَ ، بَكْلَ تَدَاعِيَاتِهَا الْعَسْكَرِيَّةِ وَالْفَكِريَّةِ فِي ثَقَافَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ ، هِيَ النَّمْوذِجُ الْأَمْ لِذَلِكَ . فَقَدْ دَخَلَتِ الْمَطْبَعَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَى مَصْرَ مَقْطُورَةً وَرَاءَ عَرْبَةِ الدَّفْعِ الْفَرَنْسِيِّ

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسن على ماضيه التليد ، والثائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحلة ، والانتهاكات التي ميزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكل ثروة معرفية كبيرة ، وبخزننا للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقى به عيون تتجول وأنفس تتفعّل بما ترى ، ووعي يلم بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكّر بها .

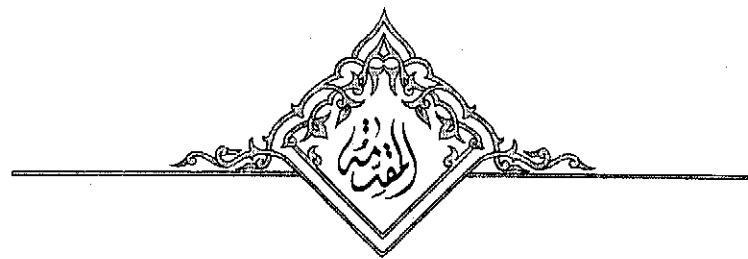
أخيراً ، لا بد من الإشارة إلى أن هذه السلسلة التي قد تبلغ المائة كتاب من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلة مؤلفة من نصوص ثرية تكشف عن همة العربي في ارتياح الأفاق ، واستعداده للمغامرة من باب تأمين المعرفة مقرونة بالمعنى ، وهي إلى هذا وذاك تقطي العمور في أربع جهات الأرض وفي قاراته الخمس ، وتحمّل إلى نشدان معرفة الآخر وعآل ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والمخاجم والعلماء ، وغيرهم من الرحالات العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد السويدى

لتأسيس للظاهرة الاستعمارية بوجهها العسكري والفكري . على أن الظاهرة الغربية في قراءة الآخر وتلقيه ، كانت دافعاً ومحطّراً

بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربية لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، ليجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافع والأسباب لتشدّر الرجال نحو الآخر ، ببحث واستكشافاً ، وتعود معها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُستقطَبُ إليه القوى الحية في المجتمع بين مؤيد للغرب موال له ومتّهمٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادي للغرب ، رافق له ، ومستعدٌ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قدتمكن من تنميّة الشرق والشريقيين ، عبر رسم صور دنيا لهم ، بواسطة مخيّلة جاءت إلى الساحري والأيرلندي والعجائبي ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتضح من خلال نصوص هذه السلسلة ، ركيز ، أساساً ، على تبع ملامح النهضة العلمية والصناعية ، وتطور العمران ، وظاهر العصرنة مثلاً في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرحالات العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقية الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من باب طلب العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتضاء آخر الآخر للخروج من حالة الشلل الحضاري التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، تجد أحد المصادر الأساسية المؤسسة للنظرية الشرقية المذهلة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المطلّع إلى المدنية وحداثتها من



إذا ما استحقّت رحلةُ ابنِ فضلانَ التي قام بها سنة 921 م عنايةً استثنائيةً من طرفِ الباحثين والمحققين ، فلأنّها من أوائل الرحلاتِ العربيةِ التي وصلت إلينا . ومقارنةً برحالة أبي دلف سنة 942 ، ورحالة المقدسي سنة 985-990 م ، فإن رحلة ابن فضلان تظلُّ مشغولةً بهمْ توثيقيًّا صرفاً أكثرَ من اهتمامها بالشأنِ الجغرافيِّ . إنّها وصفٌ أثثروبولوجيٌّ يتمحور حول موضوعٍ واحدٍ محظوظٍ لا يحيد عنه رغم قصرِ النسخةِ الوافصلةِ إلينا .

لقد انطلق ابنُ فضلانَ يوم الخميس 11 صفر سنة 309 هـ ، الموافق 21 حزيران سنة 921 م ، برحلةٍ شائقةٍ بتكليفٍ من الخليفةِ المقتدر العباسيِّ الذي طلب الصقالبةَ العونَ منهُ . واستغرقت الرحلةُ أحد عشر شهرًا في الذهابِ ، وكانت مليئةً بال GAMERs والمشاقِ والمصاعبِ السياسيةِ والانفتاحاتِ على الآخرِ المختلفِ ثقافياً .

والصقالبةَ هم سكّانُ شمالِ القارةِ الأوروبيَّةِ ، وكانوا يسكنون على أطرافِ نهرِ الفولغا ، وتقع عاصمتهم بالقربِ من (قازان) اليوم في خطٍّ يوازي مدينةَ موسكو .

وكان وفداً الخليفةِ المقتدرِ إلى ملكِ الصقالبةِ يتكونُ من أربعةِ رجالٍ أساسيين وبضعةٍ مرافقين من الفقهاءِ والمعلمينِ والغلمانِ .

الذي قام به د. الدهان ، وبالاستعانة ، كما أحسب ، بطبعه وليد زكي طوغان العربية-الألمانية .

ياقوت الحموي يقود إلى ابن فضلان

قبل التوصل إلى اكتشاف مخطوطة مشهد التي نشرها د. الدهان فإنَّ النقولات التي قام بها ياقوت الحموي في (معجم البلدان) عن رحلة ابن فضلان هي التي قادت المستشرقين والباحثين للاهتمام بابن فضلان محاولين العثور على نسخةٍ من عمله ، وهو ما توصلوا إليه أخيراً .

يشتبهُ د. الدهان أنَّ الإصطخري⁽²⁾ وأبن رسته والم Saunders قد قرأوا رسالة ابن فضلان ونقلوا عنه دون أن يُثبتوا أنهم قد نقلوا عنه . لكن الرجوع إلى هؤلاء يبرهن أنَّ ما يذكرونوه ، عن الروس والخزر والبلغار، لا يبدو كثيراًتطابق مع رسالة ابن فضلان إلا عرضاً وبنقاط معلوماتيةٍ مشاعِةٍ ، يمكن أن تنتهي لأيٍ جغرافيٍ جاد دون أن ينفل بالضرورة عن غيره .

يدرك الدهان أنَّ ياقوت ، في القرن السابع ، كان (أول) من أشار إلى ابن فضلان ، مختاراً فصولاً من رسالته ومذرجاً إياها في معجمه ، مُصرّحاً أي ياقوت ، بأوضح

(2) الإصطخري : هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري ، المعروف بالكرخي ، نشأ في إصطخر وأُسْبِبَ إليها . وفي (كتشf الظنو) هو أبو زيد محمد بن سهل البلخي ، وفي دائرة المعارف الإسلامية هو أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري . طلب العلم ونبغ في حدود عام 349 هـ ، وعني بأخبار البلاد . فخرج بطرف المطاطق حتى وصل إلى الهند ، ثم إلى سواحل المحيط الأطلسي ، وفي رحلاته لقي نفراً من العلماء في المعمول المختلفة . لم تكن مصادر علم البلاد (علم الجغرافيا) موفورة في عصره ، فكان بذلك أول جغرافي عربي صنف في هذا الباب ، إما عن مشاهدة فعلية وإما نقاًلاً عن كتاب بطليموس . وقد نقلت مؤلفاته إلى عدة لغات وتم طبعها عدة مرات . وقد وصلنا من أعماله كتابان : كتاب (صور الأقاليم) الذي أله على اسم أبو زيد البلخي ، والثاني كتاب (مسالك المالك) .

النسخة الوحيدة المخطوطة رسالة ابن فضلان:



صدرت الطبعة الأولى من «رسالة ابن فضلان» بدمشق سنة 1959 عن مجمع اللغة العربية في دمشق بتحقيق الدكتور سامي الدهان ، مع تقديم واسع وشروحاتٍ ضافية . ثم صدرت طبعتها الثانية عن مديرية إحياء التراث العربي في وزارة الثقافة والإرشاد القومي السوري عام 1977 . ثم صدرت لها طبعة ثالثة (كتب عليها أنها الطبعة الثانية⁽¹⁾) سنة 1987 عن مكتبة الثقافة العالمية في بيروت ، وعليها نعتمد نحن في طبعتنا هذه .

يتخذ الدكتور الدهان من (صورة شمسية) لرسالة ابن فضلان أصلًا للتحقيق الذي قام به . وإليكم تفصيل الأمور : في سنة 1924 نشر ماركوارت Markwart دراسةً عن الرحال في ليبيتسك ، وفي نفس السنة تسلم المعهد الآسيوي للاستشراق في بطرسبورغ ورقتين مصورتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد (طوس) الإيرانية ، ووصلت بقية الأوراق مصورة بعد عشر سنوات إلى المعهد . ومنذ ذلك العام نفسه نشر مقالاً بالروسية في التعريف بالنسخة الخطية المكتشفة في خزانة المخطوطات بممشد . في سنة 1926 صدر فهرسٌ هذه الخزانة ، وفيه وصفُ هذه النسخة ، تحت رقم 2 . «أخبار البلدان» عربي . وقد كتبت المخطوطة بخط السُّخْ ، وفي كل صفحه منها 19 سطراً ، وأوراقها 212 ورقة آخرها مبتور مخروم .

وأول من حقق مخطوطة مشهد وعلق عليها وترجمها هو الباحثُ التركي وليد زكي طوغان الذي قابها على ما جاء عند ياقوت الحموي ، ونشرها بالحروف العربية والترجمة الألمانية وطبعها سنة 1939 . وفي السنة نفسها ترجمها المستشرق الكبير كراتشوفسكي وكتب لها مقدمة ضافية ، وفي آخر دراسته نشر صورة فوتوغرافية للرسالة كاملة عن مخطوطة مشهد وبحجم كبير⁽¹⁾ .

وإلى أساس هذه الصور الشمسية التي نشرها كراتشوفسكي يستند التحقيق كله

(1) انظر لمزيد من التفصيلات مقدمة الدكتور سامي الدهان : «رسالة ابن فضلان» الطبعة الثالثة (كتب عليها أنها الطبعة الثانية) عن مكتبة الثقافة العالمية ، بيروت ، سنة 1987 .

الأديب» ، الذي جمع فيه أخبار الأدباء إلى أيامه ، ورتبهم فيه حسب حروفِ المعجم ، وأشار إلى من اشتغل منهم بالكتابية أو الوراقية أو النسخ أو الشعر . ويعتبر الكتاب موسوعةٌ ضخمةٌ للأدباء . ذكر ياقوت في مقدمته كتب الترجم الكثيرة التي استفاد منها ، وتدلُّ القائمةُ الكبيرةُ التي ذكرها على أنه علَّمَ من أعلام مؤلفي الموسوعات في التاريخ . كما يدلُّ على ذلك أيضاً تاليفه كتاب «معجم البلدان» ، وهو موسوعة جغرافيةٌ ضخمةٌ تستشرف علةً مجلداتٍ ، رتبَتْ هي الأخرى على حروفِ المعجم ، وتتضمن معلوماتٍ أدبيةً وتاريخيةً ولغويةً في غاية التنوع والثراء .

ياقوت الحموي ليس الوحيد الذي يشير إلى ابن فضلان

من حينها حتى يومنا ، جرى اعتبارُ ياقوت الحموي المصنف الوحيد الذي ينقل عن ابن فضلان ويشير بصرامة إلى ذلك بتعابيرات من قبيل : «وَقَرَأْتَ رسالَةَ عملِها أَحْمَدُ بْنُ فَضْلَانَ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنُ رَاشِدٍ بْنُ حَمَادٍ مُولَى مُحَمَّدٍ بْنِ سَلِيمَانَ رَسُولِ الْمُقْتَدِرِ بِاللَّهِ إِلَى مَلَكِ الصَّقَالِيَّةِ ذَكَرَ فِيهَا مَا شَاهَدَهُ مِنْذِ انْفَصَلَ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَنْ عَادَ إِلَيْهَا» أو «قَرَأْتَ فِي كِتَابِ أَحْمَدَ بْنِ فَضْلَانَ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ رَاشِدٍ بْنِ حَمَادٍ رَسُولِ الْمُقْتَدِرِ إِلَى بَلَادِ الصَّقَالِيَّةِ» أو بتعابيراتٍ نقديَّةٍ بقصد ما وجده في الرسالة من الأفكار المนาفية للمنطق والعقل .

على أننا اكتشفنا أن ياقوت ليس الوحيد الذي يعترف بنقله واستشهاده بابن فضلان . القزويني كان يفعل في كتابة (آثار البلاد وأخبار العباد) ، وبشاشة مواضع من كتابه :

1- «قال ابن فضلان في رسالته : رأيت جيحون وقد جمد سبعة عشر شبراً . والله أعلم بصحته» .

2- «حکى أَحْمَدُ بْنُ فَضْلَانَ رَسُولَ الْمُقْتَدِرِ بِاللَّهِ إِلَى مَلَكِ الصَّقَالِيَّةِ لِمَا أَسْلَمَ فَقَالَ : عَنْ ذَكْرِ باشْغُرَتِ وَقَنَاعِي ...» إلخ .

3- «حکى أَحْمَدُ بْنُ فَضْلَانَ لِمَا أَرْسَلَهُ الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ إِلَى مَلَكِ الصَّقَالِيَّةِ وَقَدْ أَسْلَمَ حَمْلَ إِلَيْهِ الْخَلْعَ . وَذَكَرَ مِنْ الصَّقَالِيَّةِ عَادَاتٍ عَجِيبَةً مِنْهَا مَا قَالَ : دَخَلْنَا

عبارة ، بأنَّه ينقل عنه ، خاصةً تحت الماء : خوارزم ، باشغرد ، بلغار ، إتل ، روس ، خزر . وقد أثبتَ ياقوتُ قِرابةً عشرين صفحةً من الرسالة ، وترك خمسَ عشرةَ صفحةً منها ، فكانَه ، كما يقول د . الدَّهَانُ ، نقلَ ثلاثيَّتها وبقيَ ثلثًا واحدًا على الأقلَّ مجھولاً .

هل كان ياقوتُ الأوَّلُ والوحيدُ الذي يصرُّ جهاراً بِنَقلِهِ عن ابنِ فضلانَ كما يقول د . الدَّهَانُ ويتابعه الجميع بعد ذلك؟ كلا . وهنا واحدةٌ من نتائج بحثنا في رسالة ابنِ فضلانَ ومن فضائلِ طبعتنا الحاليَّةِ هذه كما سنرى .

لتَعُدُّ إلى المستشرقين المهتمِّين بتأريخ الروس والبلغار ، ولتَرَ إلى أنَّ اهتمامَهم سنة 1800 قد قادهم إلى نشرِ ما قاله العرب عن الروس وفيهم الإدريسيُّ والمسعوديُّ وابنِ فضلانَ (عبر ما ينقله ياقوتُ فحسب لأنَّ نسخةً مشهدَ كانت مجھولةً) . سنة 1841

جمع المستشرقُ راسموسون Rasmussen مقاطعَ من فصولِ ياقوتِ المنقولَةِ عن ابنِ فضلانَ وترجمَها إلى الروسية ، ونقلَها عنه إلى الإنكليزية نيكلسون بعد أربع سنوات . سنة 1819 جمع المستشرقُ الألمانيُّ فريين Fraehn مخطوطاتِ ياقوتَ ليستخرج منها ما نقلَه الأخيرُ عن ابنِ فضلانَ ونشرها تباعاً منذ سنة 1822 . سنة 1863 نشر وستنفلد دراسةً بالألمانية عن الرحلاتِ عند ياقوتَ وفيها رحَّةُ ابنِ فضلانَ ، وكان يجمع مخطوطاتِ ياقوتَ من أجلِ نشرِ معجمِ البلدان . وفي سنة 1899 نشر فستبرغ Festberg دراسةً كذلك عن ابنِ فضلانَ . وفي سنة 1902 نشر المستشرقُ فون روزن Rosen مقالاً بالروسية عن ابنِ فضلانَ كذلك . سنة 1911 كتب المستشرقُ التشيكِيُّ دفورجاك Dvorak دراسةً عن رحلةِ ابنِ فضلانَ نشرها في براغ ، وبعد عامين نشر برتولد Barthold Bartheold بالروسية دراسةً عن موضوعِ الرحلاتِ إلى روسية عند العرب .

كان ابنُ فضلانَ (النَّقُولُ عبر ياقوتِ الحموي) في صلبِ اهتماماتِ هؤلاءِ المستشرقين . وكان ياقوتُ إذن حلقةً وصلَّى وتعريفَ بالرجلِ قبل اكتشافِ مخطوطةِ مشهدَ آنفةِ الذِّكرِ .

وياقوتُ الحمويُّ (وُلِدَ عام 1178م - تُوفِيَ عام 1228م) هو أدِيبٌ ومؤلِّفٌ موسوعاتٍ ، وُلِدَ في مدينةِ حماةِ السُّورِيَّةِ . اشتهر بكتابِه «إرشادُ الأَرِيبِ إلى معرفةِ

يضم ، إضافة للرحلة التي حققها الدهان ، ما يحسبه مؤلفه القسم المفقود منها ،
الصائغ أصله ، بل إنه يسعى إلى تقديم كشف جديد بشأن مسارها ، زاعماً أن الرجل
قد وصل حتى البلدان الإسكندنافية . والكتاب موضوع الإشارة قد صدر تحت
عنوان :

رسالة ابن فضلان : مبعوث الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد الصقالبة ، عن
رحلته إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة والروس واسكندنافيا في القرن العاشر
الميلادي ، جمع وترجمة وتقديم الدكتور حيدر محمد غيبة ، الشركة العالمية للكتاب
ش.م.ل مع آخرين ، سوريا 1991 .

في المتن الطويل لعمل كريكتون ، الذي يسميه د . حيدر محمد غيبة (النص
الإنكليزي) للرحلة يبدو ابن فضلان وقد دفع دفعاً لأن يكون فارساً ومجامراً قروسطياً
على الطريقة الإسكندنافية . من أين حصل الدكتور غيبة على هذا المتن؟
سأتوقف قليلاً وبالتطوّيل اللازم إذا استدعي الأمر لمناقشة هذا العمل بسبب
الارتباك والخلفة المتناهية ذات الزاعم العلمية ، التي أخبر بها الدكتور حيدر محمد
غيبة عمله .

يدرك الدكتور حيدر محمد غيبة في مقدمته أن السيدة زوجته دفعت إليه عام
1984 كتاباً باللغة الإنكليزية للسيد ميكائيل كريكتون بعنوان :
(أكلة الأموات : مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922
ميلادية)

Michael Crichton: Eaters of The Dead, The Manuscript of Ibn Fadlan Re-
lating His Experiences With The North Men In A.D. 922
وهو كتاب منشور عن «مؤسسة بنتام» بالاتفاق مع شركة الفريد نوف المساهمة عام
(3) 1976

Published in 1976 by Alfred A. Knopf, Inc. 193 pages.

(3) إسم الناشر وسنة الطباعة مكتوبان في نص الدكتور غيبة بالعربية فقط . نحن من استخرجنا دار
النشر وسته باللغة الإنكليزية .

عليه

والاستشهادات هذه مضمومة كاملة في هامش طبعتنا الحالية .

والقرزوني هو أبو عبد الله بن زكريا بن محمد القرزوني ، ينتهي نسبه إلى أنس بن
مالك عالم المدينة . ولد بقرزون في حدود سنة 605 للهجرة (4184 م) ، وتوفي سنة
628 هـ (1261 م) . اشتغل بالقضاء مدة ، ولكن عمله لم يلهه عن التأليف في
الحقول العلمية . شغف بالفلك والطبيعة وعلوم الحياة ، وكانت أعظم أعماله شيئاً هي
نظرياته في علم الرصد الجوي . مؤلفه الرئيسي هو كتابه المعروف (عجائب المخلوقات
وغرائب الموجودات) وفيه وصف للسماء وما تحيى من كواكب وأجرام وبتروج ،
والأرض وجبالها وأوديتها وأنهارها . بالخ . وقد رتب ذلك ترتيباً آبجدياً دقيقاً . كما
كتب مصنفه (آثار البلاد وأخبار العباد) وفيه ثلاثة مقدمات عن الحاجة إلى إنشاء
المدن والقرى ، وخصوصيات البلاد ، وتأثير البيئة على السكان والنبات والحيوان ، كما
عرض لأقاليم الأرض المعروفة آنذاك وبلدانها ومدنها وشعوبها ، وخصوصيات كل منها .
توفي ياقوت سنة 1228 م بينما توفي القرزوني سنة 1261 م أي أن بينهما 33 سنة
فقط . يسوق إذن ياقوت الحموي القرزوني ببعض سنوات ، هل يجوز أن يكون القرزوني
قد نقل عن ياقوت المقاطع المتعلقة بابن فضلان؟ أشك بذلك بعمق ، لأن من غير
المستبعد البة (بل من المؤكد) أن تكون نسخة من كتاب ابن فضلان قد وقعت بين
يديه هو نفسه وذلك لطبيعة إشاراته الصريحة المشار إليها لرسالة ابن فضلان ، إضافة
إلى أن معاصرته مؤلف آخر يشتغل مثله على المادة والمعلومات المتوفرة نفسها في
عصريهما ، لا تتفق وقوع نسخة من الرسالة بين يديه .

وعلى أية حال فنحن أمام واقعة جديدة ، رعا فاتت على من عالج ابن فضلان
ورسنه ، وهي أن القرزوني ، وليس ياقوت ، لوحده ، من يستخدمه ، بصراحة ، مرجعاً
من مراجعه ويسميه باسمه ويعرف بنقله عنه .



هل زار ابن فضلان البلدان الإسكندنافية؟

بعد عمل الدكتور سامي الدهان الرائد ، توقفنا ، بانتباٰء أقل ، أمام كتاب آخر

ال GAMER'S الغريبة التي لا تُبَتِّ إلى روح مخطوطة مشهد بصلة فإن شكاً كبيراً يحوم حول مصادرها . ما هي مصادرها؟

يذكر د. غيبة أن كلاً من كريكتون مؤلف (أكلة الأموات) والباحث النرويجي قد اعتمدَا على ترجم المقطففات الواردة في معجم ياقوت وترجم لرسالة ابن فضلان حتى عام 1951 باللغات العربية واللاتينية والفرنسية والدانماركية والسويدية والإنجليزية، دون أن تكون نسخة مشهد بينها⁽⁵⁾. ويعتبر الدكتور غيبة، في واحدة من تناقضاته الكثيرة، أن من الغريب أن يحدث إهمال لنسخة مشهد المشورة في برلين بنصّها العربي وترجمتها الألمانية سنة 1939 . هنا التباس ثان . من الواضح أن ترجم المقطففات تلك ما هي إلا الفصول التي نقلها ياقوت عن ابن فضلان ولا شيء سوى ذلك . لأننا لا نعرف شيئاً سوى ذلك في الحقيقة قبل مخطوطة مشهد إلا تماماً متأخرة لا قيمة لها باللغة الفارسية .

يتلقي د . غيبة ملاحظة كتبها الدكتور سامي الدهان ويدرك فيها أن هناك ورقة أو ورقتين ضائعتين من مخطوطه (مشهد) لكي يجعلنا نعتقد أن صفحات المغامرات الطوال من (رواية) كليكتون (أكلة الأمسوات مخطوط ابن فضلان عن خبرته بأهل الشمال في عام 922 ميلادية) هي التي تسد مسدة تلكم الورقتين . وفي هذا إجحاف بعيد وضرب من عدم الدقة العلمية ، فتلك الصفحات تغطي ، في الحقيقة ، العشرين إلى العاشرة من الأواخر ، المخطوطة .

وبدلاً من مخطط الرحلة الذي نعرفه والذي يعاني ، على أية حال ، بعضًا من الخلل بسبب فقدان أجزاء من مخطوطة مشهد ، يقترح الدكتور غيبة استناداً إلى النسختين العربية-النرويجية والإنجليزية المخطط التالي :

- 1 بلاد العجم والترك
 - 2 الروسية

(5) لا يقول لناد. غيبة كيف توصل إلى هذه النتيجة وما هي ترجم رسالة ابن فضلان التي اعتمد عليها المؤلفان اللذان يشهد بهما.

من المثير أننا نقرأ على الغلاف الخارجي الثاني من الكتاب ، كما ينقل د . غيبة ،
تعريف التالب ، بالعمل :

(أكلة الأموات : الرواية الجديدة الرهيبة مؤلف رواية «السطو العظيم على القطار») وهذه أولى الإشارات التي لا تدفع البتة للاطمئنان إلى طبيعة عمل السيد كريكتون ، لأنها تصفه (بالرواية) . على أن الدكтор غيبة ، كما المؤلف كريكتون نفسه ، يودأن إقناع القراء بأن العمل من طبيعة تاريخية موثقة ، لا يرقى إليها الشك ، وهو ما سنناقشه .

**خلاصة الأمر أن الدكتور غيبة مقتنع من خلال قراءته وترجمته لكتاب كريكتون
بأميرين التالبين :**

أولاً: أن مهمة الكاتب ، كريكتون ، اقتصرت على جمع أجزاء رسالة ابن فضلان وترجمة بعضها ، والتقدم لها والتعليق عليها ، معتمداً في الفصول الثلاثة الأولى على مخطوط ابن فضلان كما هو مترجم من روبيرت ب . بليك Robert P. Blake على وريشardon . فرأى Richard N. Frye ومن ألبرت ستانبورو كوك Albert Burroughs Cook.

ثانياً: أن المؤلف كريكتون يعتمد فيما تبقى من عمله على الترجمة النرويجية لرسالة ابن فضلان التي قام بها الأستاذ النرويجي بير فراوس-دولوس الذي جمع ما تناول من أجزاء الرسالة⁽⁴⁾ بلغات مختلفة ونقلها للنرويجية بين السنوات 1951 و حتى وفاته 1959.

من هنا تبدأ الالتباسات كلها في عمل الدكتور غيبة . فهل الفصول الثلاثة الأولى في عمل كريكتون هي تلك المترجمة عن مخطوط مشهد؟ لا نحر جواباً ، رغم أن ظاهر الكلام يوحى بذلك . وإذا كان الحال كذلك فلا بأس عليه وعلينا ، فتحن ثانية في صلب عمل ابن فضلان الذي نعرف . أما إذا كان العمل التجمعي - وهو عصب الفصول الأخرى - الذي قام به الباحث الترويجي بير فراوس دولوس هو تلكم

(4) وأنا غير أكيد البيتا ، لا سباب منهجية وعلمية ، من ان الأمر يتعلق برسالة ابن فضلان التي تعدينها هنا .

مخطوط كوبنهاغن ، كما يقول كريكتون نفسه ، مشكوك به ، والترجمات التي يذكرها غير دقيقة ولا تضيف جديداً . بعد ذلك مباشرة يقول : «اكتشف مخطوطان جديدان عام 1878 في مجموعة التحف الأثرية الخاصة بسفير بريطانيا السابق في القسطنطينية ، سير جون أمرسون .. وأحدهما لأحمد الطوسي ويعود تاريخه الموثق لسنة 1047 الميلادي ، وهذا يجعله أقرب مخطوط ابن فضلان الأصلي .. مع ذلك يعتبر الباحثون مخطوط الطوسي أقل وثوقاً من جميع المصادر ، ويتردد كثير من المؤلفين في قبول أعماله لكثرة ما فيه من الأخطاء الظاهرة والتناقضات بالرغم من أنه ينقل مقتطفات مطلولة من ابن الفقيه الذي زار بلاد الشمال». هنا المصدر ، وعلى لسان كريكتون مشكوكه أيضاً ، ولا يبدو البتة وهو ينقل تصاً لابن فضلان وإنما يجمع أحاديث عن بلاد الشمال من مؤلفين مختلفين (ابن الفقيه مثلاً كما يقول كريكتون نفسه) .

هنا يبدو كريكتون وهو يختلط أشد التخلط رغم نبرته الواقة ظاهرياً . ثم يمضي للقول عن مصادر مخطوطاته : «ويقع تاريخ المخطوط الثاني لأمين الراري بين عامي 1585 و 1595 الميلاديين . وقد كتب باللغة اللاتينية وترجم مباشرة من النص العربي لمخطوط ابن فضلان كما يقول مؤلفه . ويتضمن مخطوط الراري بعض النصوص عن أتراك الغزية وعدة مقاطع عن معارك مع «وحش الضباب» التي لم يرد ذكرها في المصادر الأخرى» . وهنا يحتاج المرء لقليل من الذهن الصافي لكي يميز معاني الكلام في نص الرأيي كريكتون ، وهو أن الراري ينقل (مقاطع فحسب من نص ابن فضلان) . هذا ما يقوله كذلك د . الدهان في هامش له أورданاه نحن في عملنا : «وأما في كتاب (هفت إقليم) للراري فالتفصيل يزيد النص أهمية وقد نقل عن مخطوطه لابن فضلان ضاعت» . نص كريكتون نفسه يوحى بأن نص الراري يتناول جملة من التفصايا ولا يتعلّق برسالة ابن فضلان لوحدها . ثمة إذن تخلط جديد .

ما تبُقَّى من تحقيقات كريكتون من طينة المقطع نفسه : جميع الأصول التي يستند إليها مشكوك بها أو أنها تتكلم عن بلاد الشمال استناداً إلى مصادر متعددة ، لاتينية خاصة ، وليس من مصدر وحيد واحد هو ابن فضلان . ربما ذكرت مصادر كريكتون ابن فضلان عرضاً أو عبر مؤلف آخر يستشهد به ، ولكنها ليس البتة مخطوطة أصلية

3- شمال أوريا واسكندنافيا ب: في الآياب (طريق العودة لبغداد)

1- بلاد الصقالبة

2- إقليم الخزر

وأضعاً شمال أوريا واسكندنافيا في عصب رحلة ابن فضلان ، وهو ما يظهر بالفعل في كتابه (ترجمته لكتاب كريكتون أي النص الإنكليزي) الذي تشغله الرحلة الافتراضية هذه فيه الفصول الطوال من 5 إلى 16 . وهذا الترتيب يزيد ، كما يقول هو نفسه ، التوفيق بين النصين العربي والإإنكليزي . ولكن ماذا لو كان نص كريكتون الإنكليزي هو مجرد تخيلات جميلة سطرها قلم روائي بارع؟ هذا ما لا يجيب عليه د . غيبة على الرغم من أنه هو نفسه يشير الشكوك حول مصداقية النص الإنكليزي هنا وهناك متناسياً حماسه له .

لو تركنا جانباً مقدمة د . غيبة وانصرفنا إلى مقدمة كريكتون ، فإن البحث العلمي والتاريخي فيها يختلط بخيال الروائي . ففي مقطع طويل عنوانه (مصدر المخطوطة) لا ندري فيما إذا كان يتحدث ثانيةً عن أعمال المستشرقين الذين يتրجمون فصول رسالة ابن فضلان التي نقلها لنا ياقوت ، أم عن مخطوط أصلي لابن فضلان . هذا الالتباس مدوح بالفعل . ولو لا ضيق المساحة والخشية من التطويل لناقشت كل فقرة من فقرات هذا المقطع . سأتوقف عند البعض منها فحسب :

بعد حديث كريكتون عن مقاطع رسالة ابن فضلان في معجم ياقوت المترجمة مراراً ، يقول لنا فجأة «اكتشف جزء آخر من المخطوط في روسيا عام 1817 ، ونشر باللغة الألمانية في أكاديمية سانت بطرسبرغ في عام 1923 . ويتضمن بعض المقاطع التي سبق نشرها من قبل ج . ل . راسموسن عام 1914 ، وقد استقى راسموسن عمله من مخطوط وجده في كوبنهاغن ، ثم اخترى ، ومن مصادر مشكوك بها . كما ظهرت في ذلك الوقت ترجم سويدية وفرنسية وإنكليزية ، إنما عرفت بعدم دقتها وخلوها على ما يبدو من مادة جديدة». إحدى الإشارات في هذا المقطع تشير إلى الورقتين المصورتين من النسخة الخطية التي اكتشفت في مدينة مشهد (طوس) الإيرانية التي تسلّمها المعهد الآسيوي للاستشراق في بطرسبرغ ، في حين أن

عن ابن فضلان، وبعدّ فيها مصادره بطريقة جد غامضة توحى بأنه في صميم عمل تاريخي ، كما يضع في ثنايا نصه الكثير من الهوامش التي تشرح طقساً أو تقليداً إسلامياً ، مما يمنع القراءة بعدها جديداً يسعى عادةً إلى طمس الحدود بين التخييل والواقعي .

هذه الحيلة الجميلة ، لكن الخطأ ، تسعى إلى اندغام لا فكاك منه بين الحقيقة والخيال ، والإيحاء للقراء بأنهم في صلب واقعة تاريخية لم يفعل هو إلا نقلها إليهم (وهو مالم يقل كريكتون بعكسه للأسف الشديد حتى اللحظة) . حيلة روائي هوليودي من طراز رفيع . لكن هذه الحيلة لم تفت على نقاده الأميركيين الأكثر جدية الذين وصفوا العمل في الصحافة بأنه : «كتابة متخيلاً لقصة مأخوذة من سفير عربي إلى بلاط الخليفة في بغداد»⁽⁷⁾ .

A fictionalized account taken from the manuscript of an Arabic ambassador to the court of the Caliph of Baghdad.

إن أعمال الروائي هي على حد تعبير الناقد الأميركي دافيد لانغران David Lonergan : الورقة تروي تعدد المعاني التي سعى الروائي ميكائيل كريكتون عبرها منع أعماله مظهراً غير متخيل . التقنيات الخاصة والناتجة المستخدمة في (أكلة الأموات) قد لوحظت .

The paper chronicles the variety of means with which the novelist Michael Crichton has attempted to give his works the appearance of nonfiction. The specific and successful techniques utilized in Eaters of the Dead are noted, and the resulting erroneous classifications by the Library of Congress and subsequent cataloguers discussed.

لكن الحيلة فاتت على البعض الآخر منهم ، من يصررون عميقاً بالجهل بتاريخنا

(7) هذه العبارة لا تقل جهلاً عن جهل كريكتون بالمعطيات التاريخية ، وتفسّر الوعي الأميركي بالتاريخ العربي الإسلامي ، فإن هذا السفير كان مبعوثاً من طرف الخليفة وليس إلى الخليفة . نقل العبارة فحسب لأنها تؤكد على الطابع الخيالي للعمل .

آخر لرسالة الرحالة العربي غير التي نعرف ، رغم أن كريكتون يريد الإيحاء ، بأسلوب ملتوٍ ، بأن عمله قائم على مخطوطه من مخطوطاتها . في هذا الإيحاء ثمة لعبة روائية بارعة ، لا تمت بصلة للبحث الرصين . وهو ما يفعله كريكتون بمهارة فائقة أربكت د . غيبة وأخرين من أساتذة الجامعات (كالدكتور عبد الله إبراهيم) حتى حسب كلامه دقيقاً وعلمياً ومنتفقاً .

لنقل في البدء كلمة عن الروائي : إنه الأميركي (جون) ميكائيل كريكتون ، روائي وسينمائي مولود سنة 1942 . أنهى دراسته في جامعة هارفارد ، ثم تنقل بين دراسة الأنثروبولوجي والبيولوجي ، وكرس نفسه في نهاية المطاف للكتابة . أصدر العديد من الدراسات الأدبية وكتب العديد من الأفلام السينمائية التي أخرج أو أنتج قسماً منها بنفسه . كما كتب العديد من الروايات الخيالية أو المستمدّة من مادة تاريخية وكان بعضها من الكتب الأكثر مبيعاً في أمريكا :

(The Great - 1972) و (The Andromeda Strain - 1969)
 (Train Robbery - 1975) و (Eaters of the Dead - 1976) وهي الرواية التي تعنى هنا (Rising Sun - 1980) و (Sphere - 1987) و (Congo - 1990) و (Jurassic Park - 1993) و (Disclosure - 1992) و (Airframe - 1996) و (The Lost World - 1995) و (Timeline - 1999) ، وغير ذلك⁽⁶⁾ .

يكتب كريكتون رواية تاريخية لا أكثر ولا أقل ، ويشير إلى ذلك في الغلاف الثاني من كتابه . إنها رواية خيال Fiction تاريخية على خط روايات أمين معرف (ليون الأفريقي ، على سبيل المثال) . لكن خلافاً لمعلوم الذي يهتم كثيراً بالتفاصيل التاريخية ويصوغ وفق مخطط روائي متخيل ، فإن كريكتون يجمع القليل جداً من التفاصيل المستلمة عرضاً عن بطله ابن فضلان ، ويصوغباقي كله وفق مخطط روائي مختلف بال تماماً .

على أنه يستخدم حيلة روائية مدهشة وهي أنه يكتب مقدمة تعريفية شبه جادة

(6) في البحث عن كريكتون استعنا بالويب على الإنترنت . ووجدنا الموقع الشخصي لميكائيل كريكتون وعشرات المقالات والتعليقات له وعنه ، ونحن نستعين بها هنا في تحليتنا .

العربي الإسلامي⁽⁸⁾.

لقد ترجم د. غيبة رواية كريكتون الخيالية ومنحنا الفرصة للاطلاع عليها ، معتقداً أنه يترجم وثيقة تاريخية . وشنان بين الاثنين .

يظهر ابن فضلان في الرواية واحداً من الشخصوص الرئيسيين ، لكنه بطل يحمل جميع السمات السلبية التي ما فتئ بعض الفكر الغربي يلصقها بالعرب . ابن فضلان فيها هو رمز للعربي (لا يعرف كريكتون أن الرجل كان مولى ! ومن أين له أن يعرف) . فهو جبان إلى أبعد الحدود ، ولا يمتلك روح النكتة ، مزجور على الدوام بسبب تدخلاته الفففة بما لا يعنيه ، مرتعن الفرائص⁽⁹⁾ ولا يريد أن يكون بطلاً

ومترم في تدينه بادئ الأمر ثم متناقض مع معتقداته الدينية . غبي ، لا يعرف السباحة ، مندهش من خصرة الغابات التي لا تعرفها صحراء . بالمقابل يبدو رجال الشمال الفايكنغ ، وعلى لسان الراوي ابن فضلان نفسه ، أشداء ، لا يخافون شيئاً ، جسورين وشجاعان إلى درجة يبدو معها ابن فضلان بينهم فأراً تافهاً مختبئاً في جحره وفي أحسن الحالات ديكتوراً أكروتيكيأً متعتاً . ثمة سحرية متناهية وحطٌ من شأن العرب في عمل كريكتون وتفكه فقط من نزعتهم الدينية التوحيدية⁽¹⁰⁾ ، وهو أمر يدعو إلى دهشة وعلامة استفهام عظيمة على طبيعة تفكير الدكتور غيبة الذي حسب العمل توثيقاً تاريخياً ، والمزيد من الدهشة من عمل الناقد د . عبد الله إبراهيم الذي راح يحلل بحماس منهجه (الآيات السرد) في تمجيدات كريكتون الشخصية وسخرية من العرب ويحسبها نصاً أصلياً لابن فضلان . أليس من العجب العجاب أن تفوت سخرية مرة ، فاقعة بإشاراتها المتعالية على قلمين مثل قلمي هذين الدكتورين

(8) يكتب الناقد الأمريكي آدم لش Adam Lesh عن عمل كليكتون : «كتب هذا الكتاب بوصفه كتاباً مدرسيّاً أكثر مما هو رواية ..». وهذا خطأ فاحش كما تحاول أن تبين هنا .

This book is written more like a scholarly work than like a novel, yet it definitely tells a story.

(9) ص 194 عند د. غيبة .

(10) ص 215 عند د. غيبة .

الفاصلين .

حاكم هذه المقاطع :

«قلوكم (أيها العرب) عبارة عن كيس كبير يطفح بالأسباب»⁽¹¹⁾ في السخرية

من النزعة العقلانية عند العرب .

«أنتم العرب أغبياء أكثر مما يمكن أن يتصور»⁽¹²⁾ .

«لا أريد أن أسمع أسئلة من أحمق»⁽¹³⁾ أي من عربي .

«إذا لم يكن مسحوراً فربما أصبح عربياً إذ أنه يغسل ملابسه الداخلية وجسمه كل يوم»⁽¹⁴⁾ بالسخرية من نزعة النظافة المستمرة والطهارة عند المسلمين .

وقال للحجارية : لا يزال عربياً⁽¹⁵⁾ بسبب تأوه بطل كريكتون ابن فضلان بعد شلل جروحه بالماء الملح على يد فتاة شمالية .

في رواية كريكتون فإن ابن فضلان يتكلّم باللاتينية ، ويتفاهم بها ، وهنا أمر كان يتوجب على د. غيبة التوقف أمامه ملياً ، ولم يفعل . لكنه إزاء تنامي وتصاعد حدة التناقضات والإشارات التي تؤكد أن العمل مصنوع صنعاً كرواية كان مجبراً على التوقف والتساؤل مرات قليلة . ففي تعليقه على ما ورد في الرواية عن مرور ابن فضلان ومشاهدته لمدينة بلغار من على ظهر قاربه من بعيد ، يقول د. غيبة : «إذا كان ابن فضلان لا يعرف شيئاً عن هذه المدينة حتى الآن ، فهذا يتناقض مع الاعتقاد بقيامه بزيارة بلغار ملك الصقالبة قبل زيارته سائر بلاد الروس وشمال أوروبا . وإذا كانت زيارته لبلاد الصقالبة بعد عودته من بلاد الشمال ، فإنه يتعارض مع التقائه بأصحابه في بلاد الصقالبة بدون أي تمهيد أو إشارة إلى الشمام شملهم ، إلا أن يكون حديثه عن ذلك هو من الأجزاء المبتورة التي لم يُعثر عليها حتى الآن ، كما أخطأنا في

(11) ص 103 عند د. غيبة .

(12) ص 120 عند د. غيبة .

(13) ص 153 عند د. غيبة .

(14) ص 162 عند د. غيبة .

(15) ص 170 عند د. غيبة .

تعلينا ، هم قبل غيرهم ، الخنزير المنهجي : أحد شروط البحث العلمي⁽²⁰⁾ .
الأنكى من ذلك أن المؤلف نفسه كريكتون ، كما لاحظ مراقب فرنسي ، يريد اليوم استبعاد هذا العمل من مجموعة مؤلفاته⁽²¹⁾ (انظر كذلك ما كتبه الناقد الأمريكي داني بي Danny Yee بهذا الاتجاه نفسه)⁽²²⁾ . لماذا؟ لأن المقدمة التاريخية التي كتبها بثقة على أنها تستند إلى معطيات تاريخية موثوقة ، لا تبدو مستندة إلى شيء موثوق ، وأنه ربما يخشى الفضيحة الشفافية ، خاصة وأنه لم يقرأ ، كما هو واضح ، من مخطوطة مشهد المترجم مراراً إلى لغات عدّة تتفق الإنكليزية على رأسها . إنه يكتب فتازيا خالصة جرى إنتاجها فعلاً فيما بعد ، سنة 1999 ، بفيلم مقامرات سينمائي على الطريقة الأمريكية تحت عنوان (1999) Thirteenth Warrior - كان هو شريكًا في إنتاجه .

(20) يكتب د. عبد الله إبراهيم مثلاً : «يقول كريكتون (الذي أعاد تركيب الأصول المفقودة لرسالة ابن فضلان (= رعا على سبيل التخيّل في بعض الفصوص) بالإنجليزية اعتماداً على مقاطع تم العثور عليها بلغات كثيرة ملاحظته القائلة «رعا على سبيل التخيّل في بعض الفصوص» لا تعفي أنه قد صدق بالكامل بنص كريكتون واستند إلى مشاهد رواية كاملة وحللها على اعتبارها نص ابن فضلان . نصح بالعودة إلى النص الكامل للدراسة د. إبراهيم المشورة في موقعه على الإنترنت . وقد سبق له أن نشرها في الصحافة العربية .»

(21) هنا ما يقوله معلم فرنسي على التعليم المتع من روايته : «كتابه الصادر سنة 1992 : (أكلة الأموات) هو كتاب صغير من كتب المؤلف (أقل من 200 صفحة) يسعى المؤلف لسبب غامض أن يخفيه من مؤلفاته» .

Paru en 1992, EATERS OF THE DEAD est un "petit" livre pour l'auteur (moins de 200 pages), que CRICHTON cherche, pour une raison obscure, à faire disparaître de sa bibliographie.

(22) كتب المعلم الأدبي (Dani Yee) يوم 11 آب 1992 يقول في ملاحظة له عن الكتاب : Apparently Crichton has disowned Eaters of the Dead and it doesn't appear in his official bibliography. I'm not sure what the reason for this is.

المقدمة»⁽¹⁶⁾ وفي هامش آخر للدكتور غيبة بصدق تعليق ابن فضلان المذهول من وجود حيوانات بحرية ضخمة يسميها الروائي على لسانه وحوش البحر ، يقول د. غيبة : «من الواضح أن وحوش البحر التي تحدث عنها ابن فضلان هي الحيتان . إنما من المستغرب أن يجهل وجودها في البحر»⁽¹⁷⁾ . وعندما يجعله الروائي يمارس الجنس مع امرأة متاجعاً شبق الشماليين اللامحدود ، يعلق د. غيبة ببعض من السذاجة : «من الصعب تفسير هذا الاعتراف لابن فضلان ، وهو المسلم التقى⁽¹⁸⁾ ، إلا إذا كانت الجارية أمّة مملوكة له باعتبار التمتع بمنتها كان مباحاً ، وأنه فقد بعض تقاه (. . .) أو أن الإنسان ينسف أسياناً أمام الإغراء»⁽¹⁹⁾ .

لكن الدكتور الفاضل يعلن بعد صفحات قليلة علانية شكوكه العالية بنص كريكتون فيكتب في أسفل الصفحة :

«هذه الأقوال وبعض العبارات التالية تزيد الشك في أصلية النص ، ذلك الشك الذي يشتّد بصورة خاصة مع بعض عبارات الفصل التاسع التي تنم عن حذقة وثقافة حديثتين»⁽¹⁹⁾ .

لماذا لم يشك الدكتور حيدر محمد غيبة منذ البدء بأصلية النص؟ ولماذا كتب تحليلاً مطولاً في مقدمته طرح عمل كريكتون فيه وكأنه تتمةً تاريخية حقيقة لرحلة ابن فضلان؟ ولماذا حسب الدكتور عبد الله إبراهيم النصَّ أصلاً لابن فضلان ، رغم إشارة غامضة له بعدم أصلية بعض المقاطع فقط (انظر الهامش أدناه)؟ ثمة خلل مدمّر في الشفافية العربية الراهنة يعبر عنه مثال هذين الدكتورين اللذين يتوجب عليهما

(16) ص 97 عند د. غيبة .

(17) ص 117 عند د. غيبة .

(18) ص 147 عند د. غيبة .

(19) ص 151 عند د. غيبة .

د . إبراهيم النص المذوف على يد كريكتون بالطبع . وبروح في تحليل طويل عن (غياب المتن) . سوى أن المتن ليس بضائع والله ، فالصفحات الطوال التي تقدمها مخطوطه مشهد هي (متن أكيد) ، يستحق التأمل والفحص رغم قصره وضياع بعض أوراقه . إننا لا نستغرب أن يقف القراء في موقف العجب من هذا النمط من الخطاب المتألف الباهر .

من هو ابن فضلان؟

أثبت ابن فضلان لحسن الحظ اسمه : أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد ، ولم يقل لنا شيئاً آخر عن حياته ، ما عدا أنه ، كما تقول الرسالة ، مولى لفافع مصر محمد بن سليمان . ويقول ياقوت إنه كان مولى محمد بن سليمان ثم مولى أمير المؤمنين فهو من العجم الموالي . هل ولد في العراق أم بأرض العجم؟ وما هو منصبه في الإداره العباسية ، وهل كتب أعمالاً أدبية غير هذه الرسالة؟ أم أن رحلته هذه لا تعلو أن تكون تقريراً من هذه التقارير التي يكتتها السفراء لدولهم؟ .

== كما سترى ، حينما يندفع ، يستعيد وضعيه كعنصر فاعل ، بعد مرحلة الخمول الأولى ، يُقبل مقابل باسل ، يُسمّى في إحرار نصر محقق على «الوندو» . يصبح سابع الأبطال ، يتخلص من شرم الدور الثالث عشر ، فيسعد بالدور السابع ؛ الرقم المقدس في عالم الإسلام . ما أن يعود من دار الكفر إلى دار العهد ، إلا ونظهر الكتابة العربية مرة ثانية ، لتذكّر بالشفرة الشفافية المدمرة التي لم يتمكن أحد من تخفيتها إلا بوساطة الآخر . ولم يُشر ياقوت الحموي إلى تفاصيل الرحلة ، بعد أن أخذ عنها الشيء الكثير ، شكك في الروايات الخاصة بالقصالية ، وأعلن براءته منها ، وعدم ضمان صحتها . وإذا صحت تلك الروايات التي عبرت إلينا خلال لغات الآخر ، وأخذت بالاعتبار فراداة المفارمة ، ومداها الواسع ، وأحداثها ، وأثراها في شخصية ابن فضلان ، يصبح من الممكن أن يُسمّع بعرضها على العموم كاملة . إذ ينبغي أن تركب صورة مشوهة للأخر . يحتمل أن ياقوت الحموي نفسه ، بعد مضي ثلاثة قرون لم يكن قادرًا على تصديق أحد مصادره عن بلاد الصقالبة . وهناك أشياء أخرى أكثر غرابة في تحليله اللاحق لا مجال لها هنا .

إذا ما كنا نناقش ما صنعه د . غيبة بهذا التوسيع ، فلأن صنيعه مؤذ وضار بحق رحلة ابن فضلان ، وأن هذه الصنيعة قد تجري بين أوساط القراء ، تاهيك عن دكتاترة مثل الدكتور الفاضل عبد الله إبراهيم ، مجرى الحقائق التاريخية الدامغة . إن جزءاً لا يستهان به من تحليلات الدكتور إبراهيم ، الجادة والصارمة ، تستند وللعجب إلى هذا العمل الروائي المتخيل ، لنقرأ : «الكتابة تلعب دوراً مهمـاً في تثبيـت رواهـ (يقصد ابن فضلان) وتصوراته وأحكامـه ، ما دام يتحركـ في مجـالـ الشـفـافـيـ ، دـاخـلـ دـارـ الإـسـلامـ . وما أن يـتـزلـقـ إـلـىـ عـالـمـ الـكـفـارـ إـلـاـ وـتـوقـفـ الـكـتـابـةـ . يـضـيـعـ مـنـ الـمـخـطـوـطـ ذـلـكـ الـجـزـءـ الرـئـيـسـ الـخـاصـ بـالـآخـرـ . كـأـنـ ثـمـةـ قـوـةـ سـحـرـيـةـ اـنـتـزـعـتـ كـلـ مـاـ يـتـصلـ بـالـآخـرـ . لمـ يـعـشـ إـلـىـ الآـنـ عـلـىـ الـأـصـلـ الـعـرـبـيـ . كـلـ مـاـ يـتـصلـ بـالـآخـرـ ، تمـ تـرـمـيمـهـ وـجـمـيعـهـ ، وـتـرـجـمـتـهـ إـلـىـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ اـسـتـنـادـاـ إـلـىـ شـذـرـاتـ مـتـنـاثـرـ بـالـلـغـاتـ الـلـاتـيـنـيـةـ وـالـأـلـمـانـيـةـ وـالـفـرـنـسـيـةـ وـالـدـغـارـكـيـةـ وـالـسـوـيـدـيـةـ وـالـإنـجـليـزـيـةـ وـغـيـرـهـ . لـغـاتـ الـآـخـرـ هـيـ الـتـيـ أـعـادـتـ إـلـيـنـاـ وـجـهـةـ نـظـرـ ابنـ فـضـلـانـ بـالـآـخـرـ» .

وبالطبع فإن إشارة د . إبراهيم إلى تلك اللغات هي إشارة إلى رواية كريكتون الهوليودية . هل ثمة من يصحح على ذوقتنا : هناك بكتابه ساخرة عن واحد من رجالتنا ، وهنا بكتابه لا تقل سخريةً ومرارةً ولكن بقناع عارفٍ فحسب . مبينتهي الأمر بالدكتور عبد الله إبراهيم بالشكّ يباقوت نفسه الذي لم يستطع ، حسب إبراهيم ، تصدقَ نصَّ ابن فضلان عن البلدان الإسكندنافية فحذفه⁽²³⁾؟ . يستعيد

(23) يقول د . عبد الله إبراهيم عن ابن فضلان مستنداً في تحليله إلى رواية كريكتون : «... سقط (ابن فضلان) في الشرك الذي كان يختار الجميع منه : معايشة عالم الكفر . داهمه نوع من النسيان ، فعلى مرمى حجر من القطب الشمالي ، أصبت ذاكرته بعقل عقائدي ، لكنه يندفع ضمن الآخر عليه أن ينسى ، أن يوقف عمل الذاكرة . في البداية كان تنوءاً زائداً ، مجرد قصلة ، الرقم الزائد المكمل للمقاتلين البواسل الائبي عشر . إنه الرقم الأخير ، الرقم الثالث عشر كـا مجرد وسيلة لسد نقص ، ففي المهمة التي دفع إليها ، لا بد أن يكون ثمة أجنبـي يقوم بدور تكميلي . ابن فضلان ، أصبح قصلة ، هو المسلم المختون كان مجرد قلة للتغطية . ومع الوقت يتخفّف من ملاحظاته الانتقادية ، بسبب الجهل الشـامـ بالـأـسـبابـ وـذـلـكـ مـاـ يـفـسـيـ بـهـ إـلـىـ خـطـاـةـ التـفـسـيرـ أوـ سـوـهـ التـأـوـيلـ . وـفـيـ النـهـاـيـةـ ، =

تكنُ تشتعل في الواقع العمليٌ كما تشتعل على الصعيد النظريِّ البحت ، مثلها مثلُ
الكثيرِ من المفهوماتِ السائدةِ الأخرى . هذا ما تبرهنَه الهجرةُ واسعةُ النطاقِ من طرفِ
جغرافيين وعلماءِ ذلك هنود ، وخزائين صينيين وغيرهم ،قادمين كأئمَّةٍ من دارِ الكفرِ
(الهند) و(الصين) للإقامةِ في (دارِ الإسلام) ، بغداد العباسية . بإمكاننا الآن تعدادُ
العشراتِ من أسمائهم . الخطوطُ الذي يبني عليه البعض تحليلاً لهم المعاصرة ، بشأنِ
هذه الثنائية ، يبقى من طبيعةِ تلقيقيةِ محض .

على العكسِ من ذلك يجد ابنُ فضلانُ صحيحاً ، وهو في موقفِ الواقعِ ، إلى
درجةِ كان يأمرُ بها وينهي ملكَ الصقالبةِ نفسه : « وبدأتُ فقرأتُ صدرَ الكتابِ فلما
بلغتُ منه سلاماً عليكَ فإني أحمدُ إلينكَ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو » ، قلتُ : رُدْ على
أميرِ المؤمنينِ السلام ، فردَ ورداً جميعاً بأسرِهم ». وثُقُوقُ قادمٌ من ترسُّخِ وقوفةِ الحضارةِ
الإسلاميةِ في العالمِ القديم . ومثلما لا يشعرُ الأمريكيُّ اليومَ بالهيبةِ من حضورِ
الآخر ، فلم يكنُ العربيُّ والمسلمُ ليتعانقَا من هذا الشعور .

٤- هجرة الأيدي العاملة تتبع مراكز الشروة :

تغدو العواصمُ الغنيةُ الكبرى ، في لحظاتِ الإزدهارِ الحضاريِّ ، محطاتِ لقادمينِ
من مختلفِ أصقاعِ العالمِ يبحثون عن لقمةِ العيشِ . إنَّ تجمُّعَ الشرواتِ في بقعةٍ ما
يعني من بينِ ما يعني ، أنَّ تلكَ العاصمةَ قد صارتُ موطنَ تجمُّعِ كمياتٍ كبيرةٍ من
الذهبِ . وهو مازهارِ في عواصمِ الأرضِ اليوم : فرنسا ، ألمانيا ، الولاياتِ المتحدةِ
الأمريكية ، سويسرا . إلخ التي تستقطبُ المزيدَ من المهاجرينِ من مختلفِ
التخصصاتِ . إنَّ القاعدةَ العامةَ في التاريخِ الاقتصاديِّ هي أنَّ هجرةَ الأيدي العاملةِ
تتابعُ مراكزَ انتقالِ الذهبِ : رمزِ الشروة . هذا هو حالُ بغدادِ في العصورِ العباسيةِ
المزدهرةِ التي كانَ وضعُها يشابهُ تماماً العاصِمَةِ الشريعةِ في وقتنا الحالي . يشابهه تماماً
حتى بالتفاصيلِ الأكثرَ دقةً . فإنَّ وجودَ تجمُّعاتِ وأسواقِ جالياتِ أجنبيةٍ مثلِ
الهنودِ والصينيينِ والعربِ في فرنسا ونيويوركِ اليومَ كانَ له مثيلٌ في (سوقِ خضر)
لباعةِ وصناعِ الخزفِ والغضارِ الصينيِّ في بغدادِ العباسيةِ ، وفي الأعدادِ المتزايدةِ من
الهنودِ المشغولينِ في حقولِ التنجيمِ والرياضياتِ ، والبيزنطيينِ المشغولينِ في حقولِ

يحيلُ إلينا أنَّ سفيراً مبعوثاً إلى أقصاصِ الأرضِ كانَ يجبُ أنْ يمتلكَ الكثيرَ من
الحكمةِ والحنكة ، لذلك نظنُّ أنَّه كانَ في الأربعيناتِ من عمرِه عندما كلفَ بهمتهِ .

ويحيلُ إلينا أنَّ بعثةَ مثلَ بعثتهِ كانتُ تستلزمُ رجلاً ذا ثقافةً معقولةً ، وهو ما نظنُّ
حالَه ، وهو ما يدلُّ عليهِ وصفُه المتأنيُ للبلدانِ والتقاليدِ التي شاهدَها عيناً . ونعتقدُ
أنَّ هيئتهِ وبئرتهِ كانتا في غايةِ الرصانةِ ، وأنَّ اختيرَ لمقابلةِ ملوكِ الصقالبةِ والخزيرِ
والروسِ لأنَّ شكلَه كانَ مقبولاً بالنسبةِ إليهم وقرباً من أشكالِ الشعوبِ التي زارها .

لم يرُدْ توثيقُ حياةِ ابنِ فضلانَ في أيِّ من المراجعِ التي بينَ أيدينا ، بالضبطِ مثلاً
لا توجدُ إلا أقلُ التفصيلاتِ عن حياةِ المقدسيِّ صاحبِ (أحسنِ التقسيمِ في معرفةِ
الأقاليمِ) الباهرِ ولا حياةِ الرحالةِ أبي دلف . وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلى
اللامبالاةِ التي كانتْ تميزُ نظرَةَ الثقافةِ العربيةِ إلى أعمالِ الرحالةِ العربِ ، وعدمِ اعتبارِ
الكتابِ في أدبِ الرحلةِ فناً رفيعَ المستوى يستحقُ إدراجَ مؤلفيهِ من بينِ مصنفوِي
ضروبِ الأدبِ الأخرىِ المبجلينِ والمؤرخِ لهمِ بأكثَرِ التفاصيلِ وأدقَّها (الفقهاءِ ،
الشعراءِ ، الأطباءِ ، التحويينِ . إلخ) .

تقعُ أهميَّةُ رحلةِ ابنِ فضلانَ في أنها تُرُدُّ التاريخَ العالميَّ بشذراتِ مهمَّةٍ عنِ أغاثِ
معيشةِ شعوبٍ قلَّماً سُجلَتْ . إنَّها تسلُّ فحرةً تاريخيةً في هذا المجالِ وتعتبرُ رائداً في
الإشارةِ ل بتاريخِ الشعوبِ الصربيَّةِ ، والروسِ منهمِ على وجهِ الخصوصِ .
لقدْ قيلَ الكثيرُ عنْ هذهِ الرحلةِ وترجمَتْ أكثرُ منْ مرةً جميعَ اللغاتِ الأساسيةِ
اليومَ في العالمِ . ونؤَدُّ هنا أنْ نشيرَ إلى أمرينِ اثنينَ :

١- علاقةِ العربِ بالآخرِ :

لا تبدو علاقةُ العالمِ العربيِّ ، أو أفلَّها ثقافةُ الناطقينِ باللغةِ العربيةِ من عربٍ وغيرِ
عربٍ من كانوا يستخدمونَ العربيةَ في حضارةِ كانتْ هذهِ اللغةُ بها شيئاً ساماً
وضروريَاً ، بمثيل استلابهَا هذا اليومَ مع الآخرِ ، وهو ما تبرهنَه رحلةُ ابنِ فضلانَ . لمْ
يكنَ الاختلافُ البديهيُّ بينَ الآنا والآخرِ ليتصاعدَ إلى المستوى الموصوفِ في كتاباتِ
بعضِ من الباحثينِ العربِ المعاصرِينَ منْ يصفونَ العلاقةَ مع الحضاراتِ الأخرىِ
بنطاقِ الخزيرِ والرَّبَّيَّةِ ، بل إنَّ ثنائيةَ نهايةَ ومطلقةَ بينِ (دارِ الإسلامِ) و(دارِ الكفرِ) لمْ

عمًا شاهد ، البعض منها دقيقًّا تماماً والأخر أقل دقةً . إن قراءة ابن فضلان تمنح متعملاً نادراً ما يلتقيها المرء في عملٍ من النوع الأدبي نفسه ، لأسبابٍ سيكتشفها القارئ لوحده عندما يُشرع بقراءة العمل .

أي مسار اختط ابن فضلان؟

إذا ما تبعنا الأماكن والمدن التي يذكرها ابن فضلان ، فسوف نسجل أنَّ مسار الرحالة كما هي بين أيدينا الآن هو بلاد : العجم والترك - الصقالبة - الروسية - الخزر .

وقد أثار هذا المسارُ الكثير من النقاشِ ، فقد كان يتوجّبُ الحديث عن بلاد الخزر قبل الحديث عن الروس لأنَّ الطريق إلى الروس يُرْأَى بالخزر ، هل ضاع شيءٌ من المخطوطة ، كما يقولُ د. الدهان ، أمَّا ابن فضلان نفسه لم يكن مهتماً بأمر تسجيل شؤون الروس والخزر مثل اهتمامه بالصقالبة هدف رحلته ، وأنه بالتالي سجل انتباعاته كييفما اتفق عن ذينك البلدين ، أمَّا مخطوطة مشهد نفسها تعاني من خللٍ منطقِيٍّ ما بسبب ناسخها أو تلف جزء منها . وإذا صحتْ هذه الفرضية ، فهل كانت النسخةُ التي وقعت بين يديَّ ياقوت تعاني هي أيضاً من الخلل نفسه؟ لا أظنَّ ، وفي يقيني فإنَّ ابن فضلان قد كتب المخطوطة بهذا الشكل الذي نعرفه ، مدرجاً انتباعاتٍ وقصص رأها أو سمعها في البلدين العذبين . ولم يُرِّزَّ البَتَّةُ البلدان الإسكندرافية كما يزعم الكاتب الهولندي كريكتون ومثله د. غيبة وتابعهما بذلك ، على عجل لا يليق بالثقافة د. عبدالله إبراهيم ، ولو أنه فعل وزارها لنقل من كل نوع .

هجرة الأيدي العاملة تتبع مراكز الشروة:

إن صراعاً كاملاً كملة ضرورية ، وأن تناقضًا وجودياً نهائياً ، بين الأنا والأخر ، لم يكونا موجودين ، ثمة بدلاً منهما الكثير من الانفتاح ، وهذا الانفتاح بالأحرى هو

الصناعات الدقيقة كالإسفلات (مثل بسطولوس المذكور لدى ابن النديم) ، ناهيك عن المزخرفين والخطاطين (مثل ياقوت المستعصمي الرومي ، البيزنطي) . كانت هناك كذلك ، كما نعلم ، حاجةً متزايدةً للمترجمين ، ليس فحسب من ينقلون كتب الأم الأخرى إلى العربية ، ولكنَّ مَنْ يقومون بدور السفراء الدبلوماسيين بين الإمبراطورية الإسلامية وما يجاورها من الدول . هكذا كانت تتقاطر على العاصمة مختلفُ اللغات والتقاليد والشعوب ، وتقيم في بغداد بحثاً عن لقمة العيش . وهذا هو ما يفسّر لنا عنصراً أساسياً من رحلة ابن فضلان التي تعنينا هنا ألا وهو تشكّلها من وفد يتكون من أربعة أشخاص هم⁽²⁴⁾ :

- 1- سوسن الرسي الذي يبدو من نسبته الرسي أنه من بلاد الروس .
- 2- بارس الصقلابي ويدلُّ اسمه بوضوح على أنه سلافي .
- 3- تكين التركي : وهو تركيٌّ من دون شكٍ يجيد لغات الأتراكِ التي يُرِّزُ الوفدُ ببلادها في طرقه إلى الفولغا ، وكان يعمل حداداً في خوارزم .
- 4- أحمد بن فضلان الذي كان رئيساً للوَفْدِ وكان يجهل اللغات الأجنبية كما يقول هو نفسه ، إلا أنه لم يكن عربياً بالبُتَّة فهو أحد المولاي ، وربما كان من أصل فارسي . وكان مولى محمد بن سليمان بن المنفق أبو علي الكاتب الذي فتح مصر وشتَّت آل طلوبون ودخلها سنة 292 هـ وقتل سنة 304 هـ . على أنَّ كونه مولى لا يعني ، كما نرى ، أنه كان يتقن العربيةَ لوحدها ، رغم تبحُّره بها ، ولعله كان يتقن لغةً أجنباده . لا يُرِّزَ ابن فضلان كبطل رئيسي⁽²⁵⁾ في الرحلة إلا لأنَّه كتب الرحلة ببساطة ، وهو لم يُغْرِ طمس رفقة الآخرين لأي سبب مُتَعَمَّدٍ أو محسوب . العكس تماماً فلو لا رحلته لما عرفنا عن أولئك آيةً شديدةً . إنَّ كتابته للرحلة ، في الغالبِ ، لم تتمَّ لكي يبني لنفسه مجدًا أدبياً ، ولا لكي يعيد الاعتبار لنفسه كما يقوّل البعضُ ، خاصةً وأنَّنا لا نعرفُ له مؤلِّفاً آخر غيرها . لقد كان سفيراً وحسب سجّل لنا ملاحظاتٍ قيمةً

(24) الملاحظات عن الأشخاص الأربعة مستقاة من د. الدهان .

(25) ملاحظاتنا التالية المتعلقة بشخص ابن فضلان و موقفه من رفقة هي وجهة نظر معايرة تماماً البعض

أفكار د. عبد الله إبراهيم بشأن الرجل ورحلته .

مسار الرحالة

بغداد
النهروان
الدسكرة
حلوان
قرميسين
همدان
ساوة
الري (قرب طهران اليوم)
خوار الري
سمنان
الدامغان
نيسابور
سرخس
مر eo
قشمہان
أمل

العلة الضرورية والمحرك الداخلي لأية حضارة في لحظات ازدهارها . وتعبر خير تعبير عن هذا الانفتاح مُردات المطبخ العباسى التي قلما نلتقي فيها بطبخ محلىٰ تمام الأصالة . لقد اختلطت مفردات المطبخ الهندية بالفارسية بالعربية أشد الاختلاط . الكل يأكل على مائدة الكل في المأدبة نفسها وإن بصعوبات حقيقة في بعض الحالات بالطبع . يتخذ البعض من هذه الصعوبات الطبيعية قاعدة لتفسير العلاقة بين الآنا والأخر بكثير من العَسْف .

سوئ أن جماعات العالم القديم وثقافاته ، الأكثر والأقل تطوراً ، كانت تعاني من انكماسات على الذات لأسباب منها ضيق فُسحة الاتصال وصعوبة المواصلات . لم تكن مشكلة الهوية بمعناها الراهن مطروحة (فكرة الهوية بمعناها هذا هي اختراع ثقافي معاصر) ، وربما كان شيء يشابهها يحضر لأسباب تتعلق بنظام القرابة ومواريث الأرض والنظام الاقتصادي لجماعة من الجماعات الساعية لتحقيق اكتفاء ذاتي . الآخر بعيد في الجغرافيا ، لذا فهو غامض ومجهول وسحرىٰ وموطن للخرافات . هذا النوع من إعلان (الغرابة) عن الآخر هو الذي كان مهيمناً ، وليس تلك التساؤلات ذات الطبيعة الفكرية المعقدة عن علاقة الآنا بالآخر . كلما ضرب الآخر في الأقصى والماهيل كلما تصاعدت وتيرة الحكايات غير الدقيقة عنه . هذا السبب البديهي لا صلة رحم له ، بالضرورة ، بمشكلات الأيديولوجيا : (دار الكفر) و(دار الإسلام) . إن انفتاحاً مذهلاً ، يصل إلى درجة الاحترام للأخرين المختلفين كان يحكم علاقة دار الإسلام بالحضارات الوثنية العربية ، الهندية والصينية خاصة (وهو ما يشرحه د . عزيز العظمة في أحد كتبه «العرب والبرابرية») . الآنا في الحقيقة متعددة والآخر متندمج بها ، وهو ما تبرره طبيعة الوفد المُرافق لابن فضلان .

شاكر لعيبي
أبو ظبي 12 أيلول 2002

أفرير
 بيكند
 بخارا
 خوارزم
 الجرجانية
 جيت
 بلاد الصقالبة
 الروسية
 الخزر .

نَصْ الْرَّحْلَةِ

قال أحمد بن فضلان :
 لَأَوْصِلَ كِتَابَ الْمَلِشِ بْنِ يَلْطَوَارِ⁽¹⁾ مَلِكِ الصَّقَالِبَةِ⁽²⁾

(1) في أصل مخطوطة (مشهد) الذي اشتغل عليه الدكتور سامي الدهان نقرأ «الحسن بن بطوار» بالباء ، وفي إحدى أوراقها «المش بن شلكي صهر الأتراك» ، وعند ياقوت الحموي الذي سيعتبر مقاطع إضافية من الرحلة نقرأ «كتاب المس بن شلكي بطوار» . ويرى بعض المستشرقين أن بطوار ربما كان فلامبر أو ملك الغولاذ . أما الباحثون الذين ينقلون عنهم د . دهان فبعضهم يرى أنه ألب بطوار ، وإبطوار وبطمار . وقال فرمان إن من ملوك التتر ملك يسمى «إيدار» ، ويضيف أن ملك الروس على الفولغا كان اسمه إيكور Igore وقد صحفه العرب . وقال برتولد لأن لقب ملك البلغار بطاطون-Wal فما يصبح ألب بطوار dawac .

(2) الصقالبة : هم السلافيون وكانت عاصمتهم (بلفار) على نهر الفولغا الذي يجري في بلاد روسيا ويصب في بحر قزوين ، والعرب تسميه نهر (أتل) . وأثار مدينة بلغار توجد بالقرب من القرية المسماة بلغارسكوي ، وهي حوالي 115 كلم جنوب مدينة قازان على بعد 7 كلم من ضفة نهر الفولغا الشرقية . نقدم هنا ملخصاً تاريخياً لتراث السلاف حتى السنوات التي قام بها ابن فضلان برحلته سنة 921م : في نهاية القرن السابع الميلادي وصلت الهجرات السلافية إلى غضاف الأدرياتيك . وربما كانت الشعوب السلافية المختلفة المنقسمة بين السلاف الشرقيين والславيين ==